

فلسفة البيئة ومركزية الأزمة البيئية

**The philosophy of the environment and
the centrality of the environmental crisis**

اد.عمران جودي ا.حراث سومية

جامعة عنابة

the massacres committed by man against the environment, awareness remains standing and strongly questions the planet that these projects are struggling today to put an end to these abuses.

Keywords Knowledge, instrumental rationality, environment, person, consciousness.

مقدمة:

شهد القرن العشرين عملية تغيير عميقة ومستمرة تفوق عملية التغير الدوري لمكانزمات الطبيعة، إنها على الأصح عملية تغيير شملت جميع مناحي الحياة، وكانت القوة الدافعة لهذا تغيير متمثلة أساساً في التقنية وسيطرة الأدوات على أغلب نشاطات الاجتماع البشري؛ فنظراً لهذا التطور الهائل للوسائل التكنولوجية في مجال الاتصالات أصبح مصطلح "القرية الصغيرة" وصفاً متداولاً، وكثير الاستعمال للتعبير عن العالم المعاصر؛ فأمريكا اليوم أكثر قرباً من أوروبا، وأوروبا أكثر قرباً من آسيا وإفريقيا، فالمسافات الجغرافية تنقل وتقلص معها المسافات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، ولهذا النقل المادي والمعنوي انعكاس كبير على القيم والمعايير السائدة والمتوارثة، بحيث تغير نظرة الإنسان إلى الأشياء وتجعله أكثر ميولاً للتأثر بكل جديد معاصر، مما يساهم في تقبل منتجات الهيمنة بصورة أكثر، وقد أدت هذه التحولات أيضاً إلى تغير البيئة نفسها وهو ما أصبح يهدد حياة البشرية بأسرها، ونقصد بالدرجة الأولى:

- ارتفاع درجة الحرارة التي تؤدي إلى الاحتباس الحراري، وهو ما يجعل الحياة أصعب على كوكبنا الأرض.

المخلص :

"إن القرن العشرين بلغ درجة من التقدم العلمي والثقافي بحيث أصبح من الممكن الحديث عن عالم خالي من الفقر والمرض والحرب والتقهقر والظلم عالم ليس يوطوبيا، ولكن يمكن تحقيقه وذلك بفعل التقدم العلمي الحاصل في مختلف المجالات"، لكن واقع هذا التقدم العلمي أسفر لنا عن شكل جديد من أشكال الدمار والمتمثل في العقلانية الأداتية، بسبب التقدم العلمي المفرط، فتحول العقل إلى أداة بيد المؤسسات العالمية من مختلف المجالات لتحقيق أرباحها المادية من خلال استنزافها لثروات الكوكب وقيامها بتجارب تخلخل التوازن البيئي، حيث تعمل جاهدة على تحويل الهدم إلى بناء، رغم المجازر المرعبة التي ارتكبتها الإنسان في حقه أولاً وفي حق كوكبه ثانياً، لكن وعي المجتمعات بحقيقة هذه المشاريع جعلها اليوم تناضل من أجل وضع حد لهذه التجاوزات.

الكلمات المفتاحية: العلم، العقلانية الأداتية، البيئة، الإنسان، الوعي.

Abstract:

The twentieth century has reached a certain level of scientific and cultural progress, so that it is possible to speak of a world without poverty, without disease, without war, without regression and without injustice, a world which is not utopian . however, the reality of these scientific advances have given rise to a new form of destruction represented by instrumental rationality, due to excessive scientific progress, transforming the mind into a tool in the hands of world institutions of various fields to carry out its material profits by exhausting the wealth of the planet and by carrying out experiments which upset the environmental balance, while he strives to convert demolition into a building, despite

- معدّلات التلوث التي بلغت أرقاما قياسية، والتي طالت البرّ والبحر على حدّ سواء .
- الصيد العشوائي أو ما يسمّى الصيد الجائر، وهي عملية من شأنها أن تقضي على أنواع كثيرة من الحيوانات وتهدّد ما بقي منهم بالإنقراض أو اختلال الدّورة الطبيعيّة.

نحن إذن أمام عوامل الهدم ما لم نتحرّك قدما نحو الحلول، والحلّ الأوّل يمكن أن يظهر ونحن نطرح أسئلة جادّة عن واقعنا ومساءلة الطّبيعة على ضوء نظرة قيمية نقول للإنسان تحرك وتوقّف، ذلك لأنّ إقناع الإنسان بأنّه جزء من الطّبيعة تجعل سكان العالم أكثر وعيا بعالميتهم، وأكثر إدراكا لإنسانيّتهم من أي وقت مضى، وعلى هذا الأساس فإن هذا الوعي يسمح بإعادة تأسيس العالم على أسس جديدة تنطلق من المجال العالمي وليس من المجال المحلي الوطني.

لعلّ الصّرخة التي أطلقها فرنسيس بيكون F. Bacon (1561، 1626) بأنّ "المعرفة قوّة"؛ أيّ أنّه لا يكفي معرفة الطّبيعة بقدر ما يهتمّنا أكثر السّيطرة عليها، قد اصطدمت بالإهتمام الإيكولوجي مع ظهور مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الجديدة، والتي بدأت تنتشر في السّاحة الفكرية المعاصرة، وتفرض نفسها على المهتمّين بالمجال البيئي (حقوق البيئة، حقوق الحيوان، السياسة البيئية، الحركة البيئية، الأمن البيئي، أصدقاء البيئة،...). أدّى هذا إلى ظهور صيحات عديدة تتادي بظرورة الوقوف على الآثار التي ألقت بظلالها على الإنسان ومأواه، حيث نجد أنّ هناك اهتماما علميا وثقافيا وأخلاقيّة وجماليّا

وفلسفيا، يعنى بضرورة إيجاد رؤية تركّز على علاقة الإنسان بالبيئة الطّبيعيّة، وهي علاقة تقوم على التّوافق والإنسجام لا على التّعديّ والسّيطرة. على ضوء كلّ هذا يكون لدراستنا هذه أهميّة مزدوجة: فهي من جهة مقارنة إجمالية عن الموقف الذي اتّخذه الإنسان إزاء الفكر البيئي من خلال مواقفه نظريّاته الثّقافيّة والعلميّة نحوها، ومن جهة أخرى تعدّ محاولة للكشف عن أهمّ ما جاءت به النظريّات المختلفة عن أخلاق البيئة وما تركته من أثر في العلم المعاصر وما فتحت من آفاق منهجية جديدة واستبصارات نظرية لتفسير المعرفة البيئية في بنيتها الدّاخلية وتحولاتها الثّورية، ونظرا لكلّ المواقف التي تجسّدت في ميدان الأخلاقيات البيئية، فإنّ المشكلة تتخطى حدود صدق النظريّات إلى محاولة تشييدها على أساس متين، لذا يهدف المشروع (المعنى الأخلاقي في البيئة) إلى فتح آفاق واسعة أمام النّظرة الإنسانية إزاء البيئة، وهو ما أفضى بفلسفة البيئة إلى أنسنة الطّاهرة العلميّة وتقليص الهوة الشّاسعة التي طالما باعدت بين التّخصّصات الطّبيعيّة والتّخصّصات الإنسانية، لذا فإنّ تحديد المفاهيم وتعريفها هي الخطوة الأولى في الدّراسات النظريّة، وتزداد أهميّة ذلك حينما تكون المفاهيم المراد تعريفها أساسية في البحث مثل الدّهنية التّخومية والعقلية الإستمرارية، ومن هنا تميّزت فلسفة البيئة بنزعة عقلية تستوحي روح العلم الخاصّة ومنهج القائم على فهم الذات الإنسانية، ومحاولة الرّبط هذه بين ما هو إنساني قيمي وبين ما هو طبيعي مادّي جعلني كغيري من الباحثين أتقصّى الحقيقة وأستكشف ما نقصده بـ "أزمة المعنى أو بعبارة

أخرى إشكالية المفهوم في البيئة" و "حل الأزمة أو التّظهير للّداء".

1- فلسفة البيئة:

يرتبط مفهوم فلسفة البيئة بالاهتمام الشديد بالبيئة في الفترة الحالية وذلك لتغيراتها السريعة والمرعبة، لذا فإنّ المعنى الاشتقاقي لكلمة الفلسفة هو "محبة الحكمة" أما اشتقاق كلمة إيكولوجي فهو مأخوذ من كلمة «إيكوس» بمعنى البيت أو الوسط المعيشي، وهو ما أدى إلى إكسابها معنى يرتبط بالبيئة، ومن ثم فنحن أمام هذا الفرع الجديد المضاف مؤخرًا إلى اهتمامات التفكير الفلسفي أين يمكن تعريفه "فلسفة البيئة"، وهذا ما يؤكد ارتباط الحكمة بالبيئة والعلاقة التواصلية بينهما، فالحكمة لا بد لها من بيت يؤويها، ولا بد لمحبتها أن يفكر كيف يرى هذه البيت ويعمل على حمايته ويساهم في نشر التربية والوعي بضرورة حمايتها والرفق بها.

يرتبط ظهور الفلسفة البيئية بظهور مجموعة من المشكلات العالمية في الستينات والسبعينات من القرن العشرين وحقيقة الأمر ليست المشكلات نفسها هي السبب، بل كان هناك وعيا عالميا حاول بشتى الطرق مواجهة تلك المشكلات فكانت هناك مظاهرات طلابية في شتى أنحاء العالم؛ حركات نسائية عالمية وحركات مناهضة للحروب وضد العنصرية والعرقية، وكذلك حركات وتوجهات راديكالية تثور على الأنماط التقليدية العقيمة للعلم والفلسفة، حيث أنّه ابتداءً من هذه الفترة ارتبطت الفلسفة بواقعها السياسي الاجتماعي والإقتصادي العلمي، وأصبحت تشخصه وتعبّر عنه فتحوّلت موضوعات مثل المرأة وحقوق الإنسان والعالم الثالث والحقوق

المدينة والسياسية وغيرها إلى موضوعات في قلب اهتمام تلك الحركات، وكان موضوع الأخطار والأزمات التي تهدد البيئة أحد تلك الموضوعات، وقد ساعد على ذلك بعض الأبحاث العلمية التي نبهت إلى أن الإنسان يقتل البيئة المحيطة به بالتدرج وظهرت الحركة البيئية نتيجة لإدراك المخاطر البيئية، نقصد بالمشكلة البيئية حدوث خلل أو تدهور في النظام البيئي، وما ينجم عنه من أخطار بيئية في شتى مظاهر الحياة على سطح الأرض، سواء كان هذا الخطر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة¹.

إنّ الاهتمام المتزايد بالبيئة في الفترة المعاصرة و ذلك جراء المشاكل الخطيرة و التحديات الكبيرة التي تواجهها البيئة من كل جوانبها وتحاول أن تعصف بها و بكل من يتواجد فيها كل ذلك كان سببا في ظهور منظمات كان الهدف منها هو الدفاع عن من يتواجد فيها كل ذلك كان سببا في ظهور منظمات كان الهدف منها هو الدفاع عن البيئة والتصدي لأعدائها وقد كان شعار هذه المنظمات هو اللون الأخضر.

فكان بذلك اللون الأخضر رمزا ولونا مميزا للبيئة وجمالها وحتى هدوئها وليس من الغريب أن يكون الاهتمام بالبيئة حاضرا في عالم الفلسفة ومجال انشغال الفلاسفة، وذلك بالتأكيد نابع من طبيعة الفيلسوف كإنسان، لأن الفيلسوف يعيش واقعه، يشعر بوجوده، يعي ويتأثر بما يجري من حوله، فقد كان هدف الفلاسفة هو "نقل المشكلات البيئية إلى الفلسفة وجعل تلك المشكلات في قلب اهتماماتهم، وقد تسبب النقاش الفلسفي حول البيئة

1- عبد المقصود زيد الدين، البيئة والانسان علاقات ومشكلات، دار البحوث العلمية، الكويت، 1981، ص 18.

في انقلاب فلسفي كبير، وثورة كوبرنيكية من نوع جديد أين لم يعد الانسان هو المركز بل الطبيعة والحياة، وبعبارة أخرى تخلق الفلاسفة عن التمرکز حول الانسان الذي هيمن على الفكر الغربي لفترة طويلة وتجندوا للدفاع عن البيئة²، وهنا يظهر البعد الأخلاقي والإنساني الذي تمارسه الفلسفة اتجاه البيئة، ليس هنا فقط بل تتجلى أبعاد فلسفية أخرى في هذه الممارسة كالبعد الجمالي والسياسي، الثقافي، الحضاري... ومن جهة أخرى كذلك لا يمكن فصل الفلسفة عن البيئة، لأن الفلسفة ترتبط ببيئتها الزمانية والمكانية والتاريخية والاجتماعية، نفس الشيء نقوله عن البيئة فهي الأرضية التي أنتجت الفلسفة والفلاسفة سواء من جهة تأثر الفلاسفة بها وبجمال طبيعتها وصفاتها وهدوئها أحيانا، أو بقوتها و غضبها أحيانا أخرى، فأغلب الفلاسفة ينفرون من المدينة وضوضائها مفضلين الطبيعة وهدوءها لتكون مصدر البيئة نفسها كانت السبب في ولادة هذا الفرع الجديد أي الفلسفة البيئية، وبما أن منهج الفلسفة في جوهره إثارة المشاكل ومحاولة حلها وإفادة البشرية بطرحها لقضايا مختلفة تهم الإنسان كإنسان، فكان من بين اهتماماتها موضوع البيئة، وبذلك ظهرت فلسفة تخص بالبيئة وتحاول النظر إلى البيئة نظره إيجابية من الزاوية الأخلاقية والإنسانية من أجل المساهمة في التخفيف من مشاكلها قدر ما يمكن، والفيلسوف بدراسته للبيئة لا يفصلها عن ما هو أخلاقي جمالي اقتصادي واجتماعي.

²- جمال مفرج، الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، بيروت، 2009، ص 35.

تكشف الدراسات الغربية والعربية الكثير في هذا المجال، حيث نجد محاولات ومقالات وملتقيات فيم يخص موضوع البيئة وقضية التناهي السريع لمشكلاتها، و نذكر بعض المفكرين الغرب أمثال "لوك فيري" صاحب كتاب "النظام البيئي الجديد" وهانس جونس "صاحب كتاب "العقد الطبيعي"، وقد أقر هؤلاء الفلاسفة بوجود حقوق للطبيعة وطالبوا بتأسيس علاقة احترام متبادل بين البشر وبقية الكائنات الطبيعية، وألا نعامل الطبيعة معاملة سيئة وتبعاً لذلك طالبوا ب "عقد طبيعي" بين الطبيعة والإنسان، بعد أن كان العقد الوحيد الجدير بالاحترام هو العقد الاجتماعي الذي يربط بين البشر فقط، وبفضل جهود هؤلاء الفلاسفة وغيرهم أصبحت البيئة أو الطبيعة أو الأرض كلها مترادفات تحقق نفس المعنى، وكلها معان ترى وجودها ومعناها الأصل وهي مقترنة بموضوع الأخلاق، وهو الأمر الذي نشأ منه فيما بعد ما يسمى "إتيقا البيئة" وهي أخلاق موضوعها سلوك البشر اتجاه الطبيعة، وغايتها المحافظة على البيئة ورعايتها وفق أطر وشروط يتمليها المصلحة العامة، ومن هذا الحافز الأخلاقي الذي حرّك الفلاسفة للمحافظة على البيئة والدفاع عنها ظهر مبحث جديد وحافز إضافي آخر في مجال الإهتمام بالطبيعة، وكذا التركيز على خصائصها الجمالية وأسسوا ما يسمى "استطيكا البيئة"³.

وبالتالي نرى أن فلسفة البيئة أكدت على أن العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين الانسان وبيئته الطبيعية لابد أن تحكمها قيم أخلاقية كالاحترام والحب، فضلا على ضرورة الوصول إلى حالة

³- جمال مفرج، الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، ص 35، 36.

من الوحدة بين الذات الإنسانية والبيئة الطبيعية فمن طريق هذه الوحدة نتجاوز الحدود الفاصلة بينها تلك الحدود التي تسبب في أزمات ومشاكل بيئية متفاقمة، فهذه الوحدة (تتجاوز الحدود) وسوف تعيد احترام الانسان لذاته أولاً ثم احترامه للبيئة الطبيعية ثانياً، لأنها ستصبح جزءاً لا يتجزأ من ذاته⁴، وهذا يعني أن الفلسفة البيئية تحاول إعادة التوازن والاحترام بين الانسان وبيئته الطبيعية، وكذا إعادة طرح الأسئلة من علاقة الإنسان مع غيره من البشر والبيئة وصولاً إلى إيجاد علاقة تحكمها القيم الأخلاقية، فضلاً عن ضرورة الوصول إلى حالة توحد بين الإنسان والبيئة، وبما أن فلسفة البيئة تنظر إلى التغيرات التي تحدث في البيئة الطبيعية بفعل استغلال الإنسان لتلك البيئة واستنزاف مواردها، و تدرس كذلك الأضرار الناتجة عن تلك التغيرات على الإنسان ذاته وعلى الطبيعة وسائر الكائنات الحية الأخرى من جهة أخرى، فإنها وإلى جانب ذلك تدرس ما هو موجود بالفعل، كما أنها تعني بوضوح أخلاقيات يجب على الإنسان أن يلتزم بها في علاقته مع أقرانه، وفي علاقته مع سائر الكائنات الحية الأخرى من جهة أخرى، فهي تدرس بذلك ما هو كائن وعلاقته مع الطبيعة، كما تبحث فيما ينبغي أن يكون فيما يسميها علماء البيئة *Eco-sophie*، أي الفلسفة التي تدرس الأسس النظرية لعلوم البيئة من جهة، و تطبيق تلك الأسس على البيئة الطبيعية تطبيقاً طبيعياً من جهة أخرى، "ذلك أن المشكلات

العلمية المطروحة على ساحة العلم، الآن بيولوجية و بيئية، فكان من الضروري لفلسفة العلم أن تكون أكثر معاشية للبيئة الطبيعية التي توشك أن تتدهور بفعل العلم و تطبيقاته"⁵. تأثرت فلسفة البيئة في السبعينيات بالماركسية، ومنه فإن التحول من العلم إلى الإيكولوجيا منه إلى الفلسفة، يعتبر تحولاً من المعمل إلى البيئة المحيطة بالكائن ثم إلى الطبيعة ككل، فعالم الأحياء يدرس الكائن في مخبره وعالم الإيكولوجيا يدرسه حياً في بيئته، والفيلسوف في الإطار الكلي للطبيعة وهكذا يسير العلم والفلسفة في ديمومة موحدة⁶.

إذن فالفلسفة البيئية هي المجال الفكري الذي ينظر إلى الكرة الأرضية من خارجها بمنظور شامل، لا من داخلها بمنظور ضيق محدود الأفق، ثم يدرس عناصرها و يرصد ظواهرها و يحدد الروابط التي تقوم فيما بينها على نحو حيادي قائم على فكرة لا مركزية الإنسان في هذا الكون وسطوته على الطبيعة، فضلاً عن أن فلسفة البيئة تسعى إلى التأسيس النظري لفكرة احترام القيمة الذاتية لعناصر الطبيعة المختلفة، وحققها في الحياة بمعزل عن حاجات الإنسان ورغباته اللامتناهية، وذلك باستخدام العلوم المعاصرة كعلم الأخلاق والمنطق واللغة وعلم البيولوجيا وعلم التنبؤ وما إلى ذلك.

II - المركزية البشرية ومشكلة الأنسة.

1 - الأخلاقيات التخومية:

⁵ - المرجع نفسه، ص 73.

⁶ - جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، تر: السيد محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1994، ص 18.

⁴ - مصطفى النشار، الفلسفة التطبيقية، الفلسفة لخدمة قضايا القومية في ظل التحديات المعاصرة، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د، ط، 2005، ص 474.

والتكنولوجيا المتقدمة بالتزام غير منطقي بحدود
قصوى للإنتاج والإستهلاك.

- إنها لا تقيم اعتبارا إلا للتكاليف الداخلية
المباشرة للتكنولوجيا من موارد وطاقة وقوى عاملة
تصرف في صنع السلع والمنتجات، وتتجاهل
العقلية التخومية تماما التكاليف "الخارجية"،
كالضرر البيئي، والآثار الصحية التي يصعب
في العادة حسابها.

_ تعتبر العقلية التخومية أن البشر بمعزل عن
البيئة، وبذلك يصبح الهم الأول للإنسان هو
السيادة على الطبيعة والسيطرة عليها.

_ تقيم الأخلاقيات التخومية وزنا كبيرا للإعتبارات
الإقتصادية البحتة، وتعتبرها من أهم القيم في
مجتمعاتنا الحديثة و إذا ما وسمت ممارسة ما
بأنها غير اقتصادية فإنها تنكر حقها في
الإستمرار مباشرة فتضمحلّ سريعا، وعندما تتغلل
مثل هذه النظرة الإقتصادية البحتة في مجتمع ما
يصبح من النادر أن تدخل في نطاقها الأشياء
التي ليس لها قيمة نقدية، كالجمال والصحة
والسعادة والأمن، بحيث تصبح من قبيل اللامعنى
واللامفهوم، وهذا ما ذهب إليه دعاة مركزية
الإنسان في البيئة الطبيعية إلى أن الطبيعة قد
وجدت من أجل الإنسان للإنقاع بها والإستفادة
منها، وهذا لا يأتي إلا عبر فرض القيود على
هذه الطبيعة، و قد ساعد على نشر هذه الأفكار
دعاة الحداثة الغربية، الذين دعوا إلى ضرورة
هيمنة الإنسان (الغربي) على السلطة والسيطرة
عليها من أجل نفعه هو وحده، لهذا حاولت بعض
الدراسات أن تبرز العلاقة بين الحداثة وموت
الطبيعة في العلم الحديث، حيث أدت الحداثة
الغربية إلى التلوث البيئي و الدمار المجتمعي،

إن المتأمل إلى حال سكان الأرض بشكل عام
وسكان مجتمعاته المتقدمة صناعيا بشكل خاص،
سيتبين له وبما لا يدع مجالا للشك، أنهم
يتعاملون مع البيئة بأخلاق تخومية وعقلية
تخومية؛ و العقلية التخومية أو الأخلاقيات
التخومية نظرة تقوم على ثلاثة مفاهيم رئيسية:

- أن العالم يحتوي على مؤونات لا نهاية من
الموارد المتاحة للإستعمال البشري وأن هناك
دائما المزيد منها لإشباع رغبات الإنسان.

- أن الإنسان يحتل مركزا خاصا فوق البيئة وهو
لا يمثل جزءا منها.

- أن الإنسان ينظر إلى الطبيعة بوصفها شيء
يجب أن يتغلب عليه ويقهره، وقد ضلت العقلية
التخومية تشكل جانبا أساسيا من التفكير البشري
على مدى آلاف السنين، وكانت سائدة في مجتمع
الصيد والمجتمع الزراعي متمثلة في جمع الغداء،
فالمستوطنون الأوروبيون الذين حلوا بأمريكا
الشمالية مثلا كانوا يعمدون إلى تدمير الغابات
واستبدالها بزراعة المحاصيل، حتى استنزفوا ما
كان في تربيتها من مواد غذائية، أو إلى أن
جرفت هذه التربة بالأمطار، فإذا انتهى الأمر إلى
ذلك، انتقوا إلى مناطق جديدة و أعادو الكرة من
جديد.

ومن أبرز خصائص الأخلاقيات التخومية ما
يلي:

- أنها تعتبر العالم الطبيعي وسيلة لإشباع
الاحتياجات البشرية دون إعتبار للإنسان، فكل
نشاط تأخذ به الممارسات الإستغلالية إلى نتائج
وخيمة.

- كما وتتميز الأخلاقيات التخومية التي تعد سمة
المجتمعات الحديثة القائمة على الصناعة

كما حاولت بعض الدراسات الأخرى ربط التلوث البيئي بالنزاعات الاستعمارية والحملات العسكرية التي قام بها الغرب لاستكشاف الأراضي التي يمكن أن ينتفع بها الإنسان الغربي، وهذا أدى بدوره إلى سيادة النزعة الطبقيّة الشوفانية المتطرفة، ومن هنا يتضح أنّ عدم الإهتمام بالبيئة جرّاء تدخل الإنسان في التوازن الطبيعي للأنظمة البيئية، أنتج الكثير من المشكلات كتغير المناخ وانحسار الغابات وانقراض بعض الحيوانات⁷.

وترجع فكرة السيطرة على الطبيعة إلى جذور فلسفية وعلمية، حيث بدأت هذه الفكرة مع فرنسيس بيكون الذي أعطى الدّعم الفلسفي والمنهجي لفكرة السيطرة على الطبيعة في العصر الحديث، فقد كان بيكون الممهد الرئيسي لاستفحال مركزية الإنسان داخل الفكر الغربي الحديث، وكان هدفه الأساسي تحقيق الخير والسعادة للإنسان الغربي عن طريق الكشف عن أسرار ملكوت الطبيعة، ولكن سرعان ما تحول هذا الخير وتلك السعادة إلى نوع من الهيمنة والتسلّط من قبل الإنسان على البيئة الطبيعية، بحيث غدت العلاقة بينهما كعلاقة السيد (الإنسان) بالعبد (الطبيعة)، ولكي ينجح الإنسان في عملية التسلط عليه أن يتبع التجربة التي هي بمثابة المفتاح السحري الذي سيفتح على الإنسان أسرار الطبيعة الدفينة، لهذا ذهب البعض إلى أن بيكون قد استبدل نظام الكتب القديمة بنظام تجريبي جديد تلتقي فيه المعرفة والسلطة معاً،

بحيث تكون غاية المعرفة هي منفعة الإنسان وتحقيق التّوازن له، ولكي تتحقق هذه السعادة لا بد للإنسان أن يزيد من سلطته على الطبيعة⁸، ويذهب كارل بوبر إلى القول بأن إدعاء بيكون "المعرفة قوة" يدل على دعوته إلى ضرورة سيادة الإنسان على الطبيعة، وأن بيكون كان المبشر بالعقيدة العلمانية للعلم وتقديس الرّوح العلمي عندما أحل اسم الطبيعة محل اسم الرب⁹.

ساهم أيضاً الفيلسوف الفرنسي الحديث "ديكارت" بفلسفة التأمّلية في توطيد دعائم مركزية الإنسان (الغربي) في البيئة الطبيعية بحيث شكلت فلسفته منعطفا خطيرا في علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، فبعد أن كانت العلاقة قائمة على محبة الطبيعة ومحакاتها أصبحت مستندة على التملك والسيطرة والإستغلال، فقد إدعى ديكارت أنه يبحث عن الحقيقة داخل الكوجيتو أو الفكر وأقرّ بأن هذا الكون عبارة عن آلة ميكانيكية ضخمة، وهي الفكرة التي أخذها ديكارت من غاليليو أي فكرة تربيض الطبيعة، حيث أكد غاليليو على أنّ الطبيعة عبارة عن كتاب كتب بلغة الرياضيات، وأن المنهج العلمي الرياضي هو الأداة الدقيقة لقراءة هذا الكتاب، فإن استطاع الإنسان أن يستخدم بدقة هذا المنهج سيتمكن من فهم الطبيعة ومن ثم السيطرة عليها، وهذا ما جعل ديكارت يذهب إلى القول بأن الإنسان هو سيد و مالك

⁸ W Leiss, "The Domination of Nature", university press, London, 1994, p p 80, 82.

⁹ - كارل بوبر، دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير، مارك أ. نوترنو، ترجمة ، أ.دعيم طريف الخولي سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د/ط، 2003، ص 110.

⁷ - الحمد رشيد وصباريني مجّد سعيد: البيئة ومشكلاتها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1979، ص 112.

هذه الطبيعة¹⁰، إلا أن المساهمة الكبرى في الحداثة الغربية التي أكدت فكرة مركزية الإنسان في البيئة الطبيعية جاءت من نيوتن الذي نظر إلى الطبيعة كشيء خامد غير فعال، حيث لعبت فكرة القصور لديه دوراً أساسياً في نظريته للطبيعة، وقد تعمقت هذه النظرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كمبدأ أساسي في الفكر الغربي الحديث، وطوّع هذا الفكر قوى الطبيعة الخاملة والجامدة التي تتشكل بفعل القوى الخارجية (الإنسان) لأغراض إنتاجية تعود عليه بالنفع.

لقد تحول العلم في العصر الحديث إلى مؤسسة تسيطر على الطبيعة وتسعى إلى كشف أسرارها الخفية التي حجبها رجال الكنيسة في العصور الوسطى الأوروبية والإستعانة بالكتاب المقدس، بوصفه المصدر الواحد والوحيد في معرفة هذه الطبيعة واعتبار العلم القائم على الملاحظات والتجارب المباشرة الحاسمة هو مصدر هذه المعرفة، ومن ثم حلت سلطة جديدة في العصر الحديث هي سلطة العلم بدلاً من سلطة الكتاب المقدس، لهذا أعاد العلم الحديث النظر في مفهوم الطبيعة وعلاقة الإنسان بها، وجاءت هذه المراجعة معتمدة على أبعاد ثلاثة: بعد منهجي أسسه الفرنسي بيكون بآلته الجديدة (الأورغانون)، وبعد فلسفي تنظيري وهو البعد الذي إضطلع به ديكارت الذي وضع أسس الفلسفة النظرية لهذا المشروع، ثم البعد الثالث وهو البعد العلمي المكمل لأضلاع المثلث والذي تكفل بإنجازه

نيوتن عندما وضع نظرياته العلمية مصاغة بطريقة منهجية ليعبر بها عن اكتمال العلم الحديث، ولكن تمخض عن هذه النظرة اندفاع الإنسان نحو السيطرة على الطبيعة وثرواتها ومما تسبب في ذلك في حدوث خلل في ميزان الطبيعة ذاتها ومن ناحية أخرى حدثت ثنائية بين الإنسان والطبيعة، حيث جعل الفكر الغربي الحديث الإنسان في مواجهة الطبيعة أين يتم دراسة الإنسان بمعزل عن دراسة محيطه، وهذا ما رفضته فلسفة علوم البيئة مؤكدة رفضها للنظام الطبقي المركزي الغربي والعقلية التسلطية التي طُبعت المجتمعات الغربية الصناعية في صور شتى، منها الهيمنة على البيئة الطبيعية من ناحية والهيمنة على الشعوب غير الغربية من ناحية أخرى.

إن محاولة الإنسان الدائمة للسيطرة على الطبيعة والإستفادة منها جعله يحدث تحولات وتغيرات في الوسائل التقنية التي تزيد من هذه السيطرة، فقد وفر الإنسان على طول تاريخه الوسائل التقنية التي تجعل سيطرته على الطبيعة أكثر فاعلية، كما وضع التصورات العقلانية لكي يبرر هذه السيطرة، فحدث التطابق بين المعرفة والتقنية داخل الفكر الغربي الحديث، فأصبحت العقلانية العلمية الغربية شكلاً من أشكال السيادة السياسية المضمرة، بعبارة أخرى تحولت العقلانية العلمية التقنية الغربية إلى إيديولوجيا هدفها السيطرة على الطبيعة والإنسان سيطرة منهجية منظمة وعلمية محسوبة ومدروسة الأغراض.¹¹

¹⁰ - بول ديفير، المادة في الفيزياء الحديثة، ترجمة، علي يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د/ط، 1998، ص ص 16، 17.

¹¹ - مصطفى النشار، الفلسفة التطبيقية، الفلسفة لخدمة قضايا القومية في ظل التحديات المعاصرة، ص 481.

لقد استخدمت العقلانية العلمية التقنية العقل بوصفه أداة للوصول إلى تحقيق غاية رسمها لنفسه وأخذ في تنفيذها في العصر الحديث، هذه هي السيطرة وخلق آليات جديدة نظرية وتطبيقية لإحكام هذه السيطرة، لهذا انتقدت فلسفة علوم البيئة هذه العقلانية العلمية التقنية التي تنطلق من منطق القوة والسيطرة، والتي أدت إلى خلق فكر ومجتمع يمارسان العنف والقمع بصورة طبيعية.

كذلك من غير الإنصاف القول بأن الممارسات البشرية الساعية إلى بلوغ حدود قصوى في استغلال البيئة هي من سمات عصرنا وحده، كلا إنّه اتجاه ضارب في أعماق التاريخ ويمثل صفة بشرية عامة، فنحر التربة والقضاء على أنواع نباتية وحيوانية، والاستغلال المفرط للموارد البيئية، ووقوع الكوارث البيئية لا تقتصر على شعب واحد أو مجموعة معينة من الشعوب، بل إنها سمة بشرية عامة في جميع الأزمنة وفي كل مناطق العالم، حيث كان تدخل الإنسان في نواميس البيئة دون تدبر، ودون وعي يؤدي إلى نتائج وخيمة ولا ترجع أسباب الضرر البيئي إلى مجرد موقف الإنسان من البيئة و انعزاله عنها ومحاولاته السيطرة عليها، فالضرر البيئي ينتج بشكل جزئي عن خاصية بيولوجية تكمن في أن كل كائن من الكائنات الحية يسعى جاهدا إلى الحصول على أقصى ما يتيسر له من البيئة المحيطة به، وتحويله إلى نفسه ونسله.

ولا يختلف الإنسان في هذا الشأن عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، إلا أن تكنولوجياته قد أتاحت له زيادة حجم جماعاته، حتى تعدت الحدود التي كانت مفروضة على مجتمعاته السابقة: تلك المجتمعات التي كانت تتميز

بمستويات أعلى من الجد والدأب، لأن أعدادها كانت صغيرة و تقنياتها بسيطة فعاشت في توافق مع البيئة، وكانت الأضرار التي تحدثها بالنظم البيئية قابلة للإصلاح في معظم الأحوال، أما اليوم فقد تدنى ذلك الدأب والتوافق إلى حد بعيد.

على أنه لم يعد بمقدورنا الإستمرار في العيش وأن ننعيم في حياتنا في ظل الأخلاقيات والعقليات التخومية، وعقليتنا القهرية وتعاملنا الفظ مع البيئة، إننا مطالبون اليوم أكثر من أي يوم مضى بإستبدال تلك الأخلاقيات والعقليات بأخلاقيات بيئية رشيدة وعقليات حكيمة، ولكي نتمكن من بناء العقلية اللازمة بمجتمع استمراري ذي توافقية عالية، سوف يتعين علينا أن نحدث تغيرات تكنولوجية وصناعية ومؤسسية في كل مناحي علاقتنا مع البيئة، كما أن الأمر سيتطلب منا إحداث تغيرات جذرية في أخلاقيتنا البيئية.

2- الأخلاقيات الإستمرارية:

إن الأخلاقيات الإستمرارية هي نقيض الأخلاقيات التخومية، إذ تؤمن الأخلاقيات الاستمرارية بأن الموارد البيئية محدودة، و أن الإنسان جزء من البيئة وأنه ليس أعلى منها، و هناك مفهومان تقوم عليها الأخلاقيات الإستمرارية وهما:

-إعتبار أن في الأرض مؤونات محدودة من الموارد غير المتجددة كالمعادن والنفط، ولذلك يجب على الناس أن يتبينوا أن النمو اللانهائي للإستهلاك المادي في عالم محدود الموارد أمر مستحيل، وأن الإنتاج والإستهلاك مضطربي الزيادة لا بد أن يوقعا الضرر بالبيئة التي تدعم الحياة، وسوف يؤدي إدراك هذه الحقيقة إلى

استحداث استراتيجيات جديدة في استغلال الموارد تشمل:

الإستراتيجية الأولى: استراتيجية للصيانة أو خفض الاستعمال المفرط للمصادر البيئية، ويجدر بنا في هذا السياق أن نتذكر كلمات الزعيم الهندي المهاتما غاندي: "إن الأرض تزودنا بما يكفي لسد حاجة كل إنسان، وليس لإشباع جشع كل إنسان".¹²

الإستراتيجية الثانية: وتهدف إلى إعادة استعمال المواد وإلى التدوير (Recyclage).

الإستراتيجية الثالثة: استعمال الموارد المتجددة (كضوء الشمس) مثلاً، بدلاً من الموارد غير المتجددة (كالفحم والنفط).

-إعتبار (أننا جزء من البيئة ولسنا بمعزل عنها): فالأرض وفقاً لآراء بعض العلماء حية وهي في حد ذاتها كائن حي، والواقع أن هذه النظرة الجديدة إلى الأرض سليمة تماماً، فالإنسان مثله مثل معظم الكائنات الحية الأخرى يبقى على درجة حرارة جسمه، وتركيز المواد المختلفة في دمه عند مستويات ثابتة تقريباً، وتعرف هذه الظاهرة بالثبات الداخلي Homeostasis، والأرض كالإنسان وغيره من الكائنات الحية الأخرى قادرة على الحفاظ على الثبات الداخلي، فهي تبقى الأوكسجين الجوي عند نسبة تبلغ حوالي 21% كما تبقى على درجة حرارة ثابتة تقريباً، وتعرف هذه الظاهرة باسم فرضية غايا Gaia Hypothesis؛ ومؤداها أن كل المواد الحية وغير الحية الموجودة في العالم هي جزء من نظام يضبط ذاته كائن عالمي هائل، إن أخلاقيات

المجتمع الاستمرارية تتبنى فرضية غايا، وتعمل هذه النظرة الجديدة إلى العالم على خلق احترام الأرض والهواء والماء وجميع الكائنات الحية التي هي جزء من الكائن العالمي الهائل، كما أنها تبعث فينا احتراماً للحياة يؤدي بالضرورة إلى تقليص بعض ممارساتنا الضارة بالنظم البيئية، والتقليل من غرورنا المفرط وأنانيتنا البغيضة وزهونا بأهميتنا الذاتية ومقاومة الفكر التخريبي الذي يسود المجتمعات التخومية، وفضلاً عن ذلك، فإن الأخذ بالأخلاقيات الاستمرارية، والعمل وفقاً لفرضية غايا، والتحول في علاقاتنا مع البيئة من زاوية أننا جزء منها من شأنه تغيير نظرة حياتنا من النواحي التالية¹³:

- سنتعلم أن ندرس قراراتنا الاقتصادية و المرتبطة بالموارد الطبيعية وتوجهها نحو الحفاظ على سلامة العالم واستقراره وجماله، وسنتبين أن الأشياء لا تقاس جميعها بالثمن النقدي، ونتجنب الممارسات التي تسلبنا الأمن والسعادة والجمال والصحة، ونسعى لبقاء كفي ونديروا ظهورنا للمادية المفرطة.

- سيتزايد وعينا للروابط المتبادلة بين جميع مكونات العالم وإدراكنا بأن أعمالنا كثيراً ما تكون لها عواقب غير متوقعة، وسيؤدي هذا بنا م إلى السعي نحو معالجة أمور البيئة والتنمية بمزيد من التعمق والتدبر والدراسة، كما سنسعى إلى ممارسة قدر متزايد من ضبط النفس، وفيما يتعلق بالتكنولوجيا والتنمية سوف لا

¹² - محمد محمود سليمان، الجغرافيا والبيئة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د/ط، 2009، ص 78.

¹³ - طلبة مصطفى كمال، انعقاد كوكنا، التحديات والأمال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص 80.

فنجم عن ذلك بروز مشكلات بيئية حادة ألقت بضلالها الضارة على الإنسان نفسه، بحيث أصبحت تهدد وجوده على الأرض وأثرت سلباً على كافة عناصر البيئة بلا استثناء¹⁵، ولكن هذا الإنسان نفسه قد تنبه إلى خطورة أفعاله ونشر ممارساته حيال البيئة، فبدأ يسخر عمله ويشرع قوانينه ويعيد النظر بأساليبه التربوية، بهدف الخلاص من جحيم المشكلات البيئية التي أفرزتها يده، على أننا لا نكاد نلمس تحسناً كبيراً على نوعية البيئة أو وقفاً لمشكلاتها، على الرغم من هذه الجهود الكبيرة التي تبذل لحمايتها، إلا أن هذا الفشل يجب أن لا يكون مدعاة لليأس أو محبطاً للجهود، إذ أن المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى يلحّ على تبني سياسة بيئية جديدة تقوم على خمس مرتكزات وهي: الشمولية، الجدية، الحزم، الفردية العالمية، و فيما يلي توضيح لها:

*** الشمولية Comprehensiveness:** ونعني بها أن يوظف العلم والقانون والتربية في نسق متكامل شمولي إذ أن لكل منهما دور في حماية البيئة، وإذا ما اجتمعت معا ووجهت نحو كل مشكلة بعينها فإنها لا محالة سوف تؤتي أكلها.

*** الجدية Seriousness:** ويقصد بها أن ننظر إلى الأمر بكل اهتمام وعناية، بعيداً عن التراخي والتواكل فالجدية تعني أن يدرك الإنسان أنه الهدف القادم لافتراسه من قبل البيئة، وأن نارا جحيماً قد أصاب إما لباسه

يكون من المحتم أن نقوم بتنفيذ كل ما نحن قادرون على عمله، بل سنعتاد على سؤال أنفسنا أولاً: هل ينبغي أن نطرح بهذه الذهنية الإستمرارية في النظام البيئي؟ هل ينبغي أن نبني مزبداً من الأسلحة النووية؟ هل ينبغي أن ننجب عدداً لا متناهاً من الأطفال؟ وغيرها من الأسئلة...

إنّ ضبط النفس هذا، يجب أن يرسخ مسؤوليتنا عن الأرض ومسؤوليتنا عن الأجيال البشرية القادمة، ومسؤوليتنا إزاء الكائنات الأخرى، وحيثما أدت الممارسات الشخصية إلى تهديد مصالح أشخاص أو جماعات أخرى بأكملها، فإنه يجب أن تعطى الأفضلية للصالح العام، فضبط النفس يمارس لأنه يعمل لصالح المجتمع ككل ولصالح الأجيال القادمة في العالم بأسره¹⁴، وهو ما يعيننا على إقامة مجتمع ذو توافقية عالية تعمل فيه الأجزاء المفردة لصالح الكيان بأكمله، كما يعيننا على تحقيق حالة من التناغم مع البيئة (الطبيعة) مما يعود بالفائدة على كل من البشر والبيئة.

3- إستراتيجية الإنقاذ:

قد لا نأتي بجديد إن قلنا أن البيئة بكافة عناصرها ومكوناتها في هذا الكون الفسيح، قد خلقها الخالق جل وعلا لإستقبال الحياة لكفالة الأحياء، ولذا فإن الإنسان مقيد بمراعاة الاعتدال وملزم بتجنب الإسراف، و الابتعاد عن كلّ ما من شأنه الإخلال بالتوازن البيئي.

ولكن الإنسان لم يتعامل مع البيئة ضمن قوانينها و إنما تعامل معها ضمن منطقة الآني والأناني،

¹⁵ -سردار ضياء الدين، نحو نظرية إسلامية عن البيئة، مجلة المسلم المعاصر، المجلد 15، العدد 59، 1991، ص 77.

¹⁴ - الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الشركة الوطنية النشر و التوزيع، الجزائر، 1998، 27.

أو أحد أعضاء جسده و إن لم يتدارك الخطر فإنه لا محالة سوف يهلك¹⁶.

*** الحزم Strienss:** ويعني أنه علينا أفرادا وجماعات ومجتمعات دولية أن نقف في وجه كل من تسول له نفسه الإعتداء على البيئة أوالسبب في تدهورها، كما أنّ التراخي في تطبيق القوانين قد عززت الإتجاهات السلبية البيئية لدى الكثيرين، وإذا ما طورت التشريعات بشكل ملائم وإذا ما طبقت هذه التشريعات بشكل صارم فإنها لا مجاله سوف تؤولي أكلها.

*** الفردية Individuality:** ويقصد بها التأكيد على الفوائد التي يجنيها الأفراد أنفسهم أكثر من التركيز على الفوائد التي ستجنيها الشعوب أو العالم بأكمله من ذلك، إن على برامج التربية البيئية بكافة أشكالها أن تبرز للأفراد الفوائد التي سيجنونها بتكوينهم أسر صغيرة، أو بشرهم مياه نظيفة أو بترشيد استهلاك الطاقة مثلا أكثر من التركيز على الفوائد التي ستجنيها شعوبهم أو أممهم أو العالم بأكمله، فالناس يميلون إلى الاهتمام أكثر بما يتعلق بهم كأفراد¹⁷ وما يدور في أسرهم قبل الاهتمام بالإقليم أو العالم.

*** العالمية Universality:** ويعني بها ضرورة اشتراك المجتمع الدولي في التصدي لمشكلات البيئة، فسكان الأرض جميعا أشبه بركاب السفينة، إن أصابها عطب في أي موقع غرقوا جميعا، و لا يهم حينها من تسبب في خرقها إلا

أن المنطق يحتم على الدول الصناعية أن تساهم أكثر من غيرها من باقي دول العالم في تنفيذ برامج حماية البيئة.

إن تبني هذه السياسة البيئية، ذات المرتكزات الخمس تمثل هي طوق النجاة باعتبارها مسؤوليتنا جميعا، وإذا كانت هذه المسؤولية أخلاقية ومنطقية من جهة، فإنها مسؤولية شرعية ودينية من جهة الأخرى¹⁸.

إنها استراتيجية الإنقاذ التي لا بد لنا جميعا من الإيمان بها وتبنيها وتنفيذها إن كنا حقا نريد البقاء لنا ولأجيالنا القادمة فالمعركة التي نحتاج إلى كسبها والحرب التي لا بد لنا من الانتصار فيها شديدة ومهلكة وعنيفة، أما البديل الآخر فهو أن لا تكون، تلك هي فرصتنا نحو عيش آمن على هذا الكوكب، والذي لا نملك غيره، وتلك هي مسؤوليتنا الأخلاقية اتجاه الأجيال البشرية القادمة واتجاه الكائنات الحية الأخرى والعالم نفسه، إنها بارقة الأمل الوحيدة المتبقية اتجاه تعاملنا مع البيئة واتجاه الوقوف في وجه الكارثة التي تنتظرنا إذا ما استمر الوضع الراهن على ما هو عليه، وهذا ما تذهب إليه فلسفة علوم البيئة.

نحن اليوم بحاجة إلى مجتمع بديل يقوم على المبادئ البيئية التي تدعو إلى الإحترام المتبادل من خلال علاقات حميمة تربط جميع الكائنات الحية على كوكب الأرض، ونبذ فكرة مركزية الإنسان التي لا تعطي للموجودات الأخرى غير الإنسانية أدنى اعتبار، وتجعل الإنسان أكثر عدوانية في التعامل مع بيئته الطبيعية، لهذا دعت فلسفة علوم البيئة إلى أن تكون التعددية

¹⁶ - عبد العزيز مصطفى، الإنسان والبيئة، المطبعة الحديثة، القاهرة، د/ط، 1978، ص 155.

¹⁷ - عصام الدين على هلال، النماذج الحاكمة لفلسفة التربية البيئية وأهدافها، دار القرب للنشر و التوزيع، وهران، د/ط، 2002، ص 202.

¹⁸ - عبد السلام جعفر، الإسلام والحفاظ على البيئة، رابطة الجامعات الإسلامية، ط1، 2006، ص 67.

هي أساس العلاقة بين الإنسان والطبيعة، هذه التعددية تظهر عندما يحدث حوار بين الإنسان مكونات البيئة الطبيعية بعناصرها المختلفة.

لقد دعت فلسفة علوم البيئة إلى نبذ الثنائية: الإنسان / الطبيعة، وأكدت أن الإنسان لا ينفصل، بأي حال من الأحوال، عن البيئة بل هو جزء منها، بالإضافة إلى أن البشر جميعاً متساوون في علاقاتهم مع الطبيعة، لهذا دعت هذه الفلسفة إلى ضرورة مسايرة الإنسان للطبيعة وعدم مقاومتها، لأن العلاقة التي تربط بين الإنسان والبيئة الطبيعية هي علاقة وئام ووفاق، ومن هنا لم يعد الإنسان مع فلسفة علوم البيئة طرفاً مقابل للبيئة الطبيعية، لهذا يذهب البعض إلى أن فلسفة علوم البيئة هي تلك الفلسفة التي تبحث عن الانسجام البيئي أو التوازن بين الإنسان والبيئة الطبيعية من هنا لا تهتم هذه الفلسفة بوقائع التلوث البيئي ومصادره بقدر ما تهتم بالقيم التي تعيد الانسجام والتوافق بين الإنسان وبيئته¹⁹، لهذا نجد فلسفة علوم البيئة ترفع شعار "حب الطبيعة" Love of Nature بدلاً من الهيمنة على الطبيعة Domination of Nature.

4- الإنسان والبيئة:

العيش بكرامة و انسجام مع البيئة هو الهدف الذي ينبغي أن يتحقق لجميع الناس في المستقبل، ومن أجل ذلك طرح التوقعات التالية:

- سوف يستعاد التوافق بين الإنسان و البيئة بعد أن أدرك ان القضاء على هذا التوافق معناه القضاء على الجنس البشري.

- سوف تستخدم طرق جديدة للتخلص من النفايات، كما ان جهود الإنسان سوف تتعدى مجرد تنظيف الهواء وتطهير الماء، إذ يسعى العلماء بمسألة تكوين علاقة أكثر توافقاً بين الإنسان وبيئته الطبيعية، فالمباني سوف تصمم بحيث تتسجم مع البيئة الطبيعية وفي ذلك مراعاة للبيئة المعنوية غير الملموسة للإنسان.

- سيتوجه الإنسان إلى استخدام الطاقة الشمسية في التدفئة والتبريد مخففاً بذلك الضغط على موارد الوقود الأحفوري غير المتجددة ومقللاً من انبعاث الملوثات في البيئة.

- رغم منجزات الإنسان العلمية، فقد آن له أن يدرك أنه لا يملك قوة جبارة ولا هو سيد الكون دائماً بل هو مجرد عنصر صغير في الكون الشاسع²⁰.

— أما القوة التي يملكها الإنسان وتميزه عن باقي صور الحياة فعليه أن يستخدمها بحكمة أكبر لأن مصير الأجيال القادمة أمانة في عنقه.

من جهة أخرى يعتبر هذا العرض مبني جزئياً على سوء فهم لوظيفة العلم، وجزئياً على التصنيف الضيق للعلوم، حيث أنّ دور العلم لا يقتصر على البحث في سعادة الإنسان والسبب والنتيجة والقوانين التي تجري على أساسها أساسها الظواهر، لكنه يعالج بطريقة نظامية كل الحقائق المعروضة أمامنا. وهناك مجموعة كبيرة من الحقائق لا تنتمي إلى عالم الأحداث الطبيعية والمادية التي يمكن دراستها والربط بينها، فعلم الأخلاق لا يتناول السلوك كحقيقة طبيعية تحدث

²⁰ - رشاد احمد عبد اللطيف، البيئة والإنسان، منظور اجتماعي، دار الوفاء للنشر والتوزيع والطباعة، الإسكندرية، د/ط، 2007، ص 163.

¹⁹ - يورغن هابرماس، التقنية والعلم كأيدولوجيا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د/ط، 1999، ص 78.

نتيجة لأسباب ماضية تعقبها نتائج معينة في المستقبل، ولكنه يهتم بالحكم على السلوك، الحكم بصواب السلوك أو خطئه قياساً على معيار معين أو غاية معينة.

خاتمة:

لقد شكلت البيئة ولا زالت بالنسبة للإنسان ذلك المجال الحيوي الذي يعيش فيه والذي سمح له بالإستقرار، وذلك لما تحتويه من كنوز دفيئة وموارد مائية وطبيعية متنوعة، مكنته من تطوير طرق وسائل تكيفه معها وأوصلته إلى درجة عالية من الرفاهية، غير أن حب الإنسان لتحصيل الثروة والسيطرة والتملك، جعله يتجاهل كل الأخطار الناجمة عن استغلاله غير العقلاني والمفرط لثروات البيئة، خصوصاً بعد اكتشاف الآلة ودخول الانسان مرحلة التصنيع وما صاحبها من زيادة في الإنتاج والمصانع واليد العاملة والنمو السريع للمدن، وبالتالي دخول مرحلة جديدة من علاقة الإنسان بالبيئة غلبت عليها أنانيته وطلباته المتزايدة، والتي كانت السبب الرئيسي في بروز العديد من المشكلات البيئية، وعلى رأسها مشكلة التلوث التي تعتبر من أخطر المشاكل التي تهدد حياة الكائنات الحية بما فيها الإنسان بسبب تأثيره على العناصر الأساسية للحياة من ماء وهواء وتربة، ما نتج عنه اختلال في التوازن البيئي والتي أصبحت آثاره واضحة بشكل كبير في الوقت الحاضر.

ونظراً لتردي الأوضاع البيئية وتفاقم المشاكل التي كان سببها طموح الإنسان وجشعه، أجبر العالم على دق ناقوس الخطر لإيجاد الحلول السليمة لمعالجة أخطاء الإنسان وانتهاكاته المتكررة، وإنه من بين الحلول التي أكد عليها

المجتمع الدولي التربية البيئية والإعلام اللذان يعملان على نقل المعارف والقيم والسلوكيات والمهارات القادرة على تمكين الأفراد من تحديد المشاكل البيئية، وكذا إيجاد الحلول المناسبة لها، وهما يهدفان بشكل أساسي إلى خلق الضمير البيئي الذي يتحكم في القرارات البيئية لإيجاد سبيل للتعايش السلمي، كذلك الدعوة إلى ضرورة تضافر الجهود وتكاملها بين دول العالم وعقد مجموعة من المعاهدات أملاً في إيجاد حل لهذه الأعمال المخلة بالبيئة.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن هناك مجموعة من الأساليب التي يمكن للإنسان أن يستخدمها في سبيل تحقيق أهدافه في مجال التربية البيئية، كالقيام بمحاضرات متخصصة وندوات وحلقات بحث ومؤتمرات وورش عمل لنشر التوعية وزيادة التعليم في مختلف قضايا البيئة كتنظيم النسل أو مكافحة التلوث، وتنفيذ البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تكشف الحقائق البيئية للمواطن، وتبصره بدوره ومسؤولياته اتجاه مشكلات البيئة، ومن ثمّ تسخير الصحافة لنشر الوعي البيئي عبر مقالاتها وتحقيقاتها ورسومها الكاريكاتورية وغير ذلك من أساليب الإبلاغ؛ أي تشجيع الأفراد على زيارة المتاحف والمعارض وحدائق الحيوان والمحميات الطبيعية التي تشكل مصادر هامة للمعلومات البيئية للناس بكافة فئاتهم، على أن من شأن هذه الزيارات أن تنمي عند الناس المواقف الإيجابية إزاء البيئة.

نستنتج في الأخير أن علاقة الانسان بالبيئة هي علاقة استغلال واستنزاف لا علاقة رعاية واستخلاف، فالإنسان لا يدرك أنّ تدميره للبيئة هو تدمير لذاته، ومنه فإنّ أعظم إنجاز يمكن أن

5. الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الشركة الوطنية النشر و التوزيع، الجزائر، 1998.
6. رشاد احمد عبد اللطيف، البيئة والإنسان، منظور اجتماعي، دار الوفاء للنشر والتوزيع والطباعة، الإسكندرية، د/ط، 2007.
7. سردار ضياء الدين، نحو نظرية إسلامية عن البيئة، مجلة المسلم المعاصر، المجلد 15، العدد 59، 1991.
8. طلبة مصطفى كمال، انعقاد كوكبنا، التحديات والأمال، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991.
9. عبد السلام جعفر، الإسلام والحفاظ على البيئة، رابطة الجامعات الإسلامية، ط1، 2006.
10. عبد العزيز مصطفى، الإنسان والبيئة، المطبعة الحديثة، القاهرة، د/ط، 1978.
11. عبد المقصود زيد الدين، البيئة والانسان علاقات ومشكلات، دار البحوث العلمية، الكويت، 1981.
12. عصام الدين على هلال، النماذج الحاكمة لفلسفة التربية البيئية وأهدافها، دار القرب للنشر و التوزيع، وهران، د/ط، 2002.
13. كارل بوبر، دفاع عن العلم والعقلانية، تحرير، مارك أ. نوترنو، ترجمة، أ.ديمين طريف الخولي سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، د/ط، 2003.
14. محمد محمود سليمان، الجغرافيا والبيئة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د/ط، 2009.
15. مصطفى النشار، الفلسفة التطبيقية، الفلسفة لخدمة قضايا القومية في ظل التحديات المعاصرة، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د،ط، 2005.
16. يورغن هابرماس، التقنية والعلم كأيدولوجيا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، د/ط، 1999.
17. W Leiss, The Domination of Nature", university press, London, 1994

تحقيقه البشرية في عصرنا لن يكون العلم أو الفن أو التكنولوجيا، وإنما إدراك الخلل الوظيفي للعقل الجمعي الذي تضخم وتسارع إلى تدميره التقدم العلمي والتكنولوجي، حيث يدل استقراء الواقع عن ظهور استنتاجات تصف وتحلل العديد من المخاطر البيئية التي تشكل أحد معالم مجتمع المخاطر وتظهر في خضوع الموارد البيئية للنصب والإستغلال مؤدية لمزيد من التدهور البيئي في المستقبل بحسب تقارير المؤتمرات التي ذكرناها سابقا لصحة النظم البيئية بكوكب الأرض، وفي سياقها (المؤتمرت) ارتفعت أصوات عديدة للتنديد بانحرافات تنموية تتركس على نطاق واسع لاحدود له أزمة العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتي انطلقت من الأطروحات العقائدية الهوبزية (نسبة إلى هوبز) والمجسدة لطموحات السيطرة الميكانيكالية والمصممة في برنامج شامل لـ فرنسيس بيكون الذي يصوغ أخلاقيات جديدة تجيز استغلال الطبيعة، وقد بدا أن موارد الطبيعة ملك لها وصارت معظم المجتمعات تتقرب نهاية الطريق ، نهاية المشاريع التنموية، وربما تأكد لديهم نهاية التاريخ حسب فوكوياما.

قائمة المراجع:

1. بول ديفير، المادة في الفيزياء الحديثة، ترجمة، علي يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د/ط، 1998
2. جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، تر: السيد محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 1994.
3. جمال مفرج، الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، بيروت، 2009.
4. الحمد رشيد وصباريني محمد سعيد: البيئة ومشكلاتها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1979.